رحيل أحد روّاد ثقافتنا

(ص ٧-١٢)

في شهر رجب الماضي فارقنا العلامة السيد محمد حسين فضل الله، وهو رجل قضى عمره لتحقيق الأهداف الرسالية الحضارية لهذه الأمة.

كان حضاريًا رساليًا في نظرته المقاصدية للعلوم الإسلامية..

وكان حضاريًا رساليًا في فهمه للحالة الطائفية في عالمنا الإسلامي..

وكان حضاريًا رساليًا في فهمه لطبيعة الساحة اللبنانية وللتحديات التي تواجه العالم الإسلامي..

كان يعيش همّ تخلف المسلمين ويسعى إلى أن ترتفع الأمة إلى مستوى ما أراده الله لها من الريادة والقيادة والوسطية..

نقف في بداية هذا العدد من «ثقافتنا» عند بعض محطات أفكار هذا الرائد الراحل:

نظرته المقاصدية

السيد فضل الله لا يتحدث عن نفسه كثيرًا، بل يتحدث عن غيره بنظرة تدلّ على إعجابه بكلّ من يتجه في دراسته نحو الهدف الإنساني الاجتماعي للعلوم الإسلامية.

يقول ـ مثلاً ـ لدى حديثه عن العلامة الشيخ حبيب آل ابراهيم:

«كان الشخصية التي تعيش قلق الرسالة، فهو في قلق دائم وهو يطلب العلم، كيف يمكن له أن يختار من مفردات العلم ما يمكن أن يغني الرسالة، لأن الكثير مما يدرسه الناس في الحوزات، وفي غير الحوزات، يتعب الرسالة ولا يغنيها، لأنه يحلّق بك في التجريد، ويشغلك عن

الواقع، لذلك أن تطلب العلم وأنت تعيش رساليتك، هو أن تعيش قلق البحث عن كل مفردة يمكن لها أن تغني حركتك الرسالية، أن يكون علمك الذي تتعلمه الآن إضاءة لعقل وحلاً لمشكلة، من أجل أن تفتح فيهما الكثير من الآفاق، وأن تعيش قلق المعرفة.

كان إحساسه بالتحديات ينطلق من خلفيات شبابه الطفولي، أو طفولته الشبابية، وكان يعيش المشكلة هناك في جبل عامل، ويدرك الجهل الذي فرض على تلك المنطقة، والتخلف الذي كان يتحرك في بعض زواياها، والظلم الذي كان يطبق عليها، والإهمال الذي يحل بها، أدرك أن كل ذلك يحتاج إلى حركة فيها من المعرفة ما يبعد التخلف، وما يؤكد للعدل موقفه، ويطرد الظلم، لأن أي شعب يعيش الضغط والاضطهاد يفقد أكثر من فرصة للتقدم والإبداع.

كان يعيش قلق المعرفة في خلفيات طفولته، ليبحث من خلال هذا الوعي في مستقبل شبابه وشيخوخته عما يمكن أن يحقق المعرفة التي لا تنطلق في التجريد، ولكنها تتحرك في الواقع لتكون تجربة تغني الفكر وتغني الواقع، ولينطلق ويطلق الفكرة التي تقول: إنك بمقدار ما تكون عالمًا أكثر بمقدار ما ترتبط بقضايا أمتك أكثر، وأنك بمقدار ما تكون مثقفًا أكثر لابد لك وأنت تحرك الثقافة في خط الإسلام أن تحرك الإسلام ليسوس الناس، إسلام ـ العدل ـ الإصلاح ـ الحرية ـ السلام ـ الحركة الإنسانية التي ترتفع بالإنسان. ولذلك فإن مسألة المعرفة الإسلامية تساوي الوعي السياسي الحركي الذي لا يتعامل مع السياسة في وحولها ومغاورها وكهوفها، ولكنه يتعامل معها في آفاقها وفي كل مواقع النور فيها، ولذلك كان يقرأ الكثير فكان يتجاوز درسه إلى الكثير مما يشعر بالحاجة إليه مما لا تقدمه الحوزة لطلابها.

وهكذا اغتنى أدبًا في النثر بحسب أساليب النثر الأدبي آنذاك، وأدبًا في الشعر بحسب أساليب الشعر آنذاك، وتاريخًا، وثقافة اجتماعية، وفهمًا للناس، ومقارنة للأديان، ومقارنة للمذاهب، ولهذا كانت حركته نحو المعرفة تمثل لونًا من ألوان وعيه لحاجات أمته. وهذا هو ما تحتاجه كل أمة ويحتاجه كل شعب في مسألة المعرفة، وأن لا تكون المعرفة غيبوبة في التجريد ليتحدث الناس دائمًا عن جنس الملائكة، وعن مسألة أصل البيضة، وأصل الدجاجة. أن تكون المعرفة للحياة للإنسان لتفعيل الإنسان، وهكذا رأينا معرفته تتمثل في حركته في مقتبل عمره وفي نشاطه».

فهمه الحضاري للحالة الطائفية

لقد استوعبت قضية مكافحة الطائفية مساحة كبيرة من حياة الفقيد وفكره. وكان يرى أن النعرات الطائفية تعود إلى حالة التخلف في عالمنا الإسلامي. ويقول: إن الاختلاف بين الشيعة والسنّة حين يتخذ حالة صراع طائفي فإنه يستمدّ جذوره من حالة التخلف التي تفرز الحالة العشائرية في المجتمع. الصراع الطائفي هو أقرب ما يكون عندئذ بين عشيرة الشيعة وعشيرة السنة!!

ولدى حديثه السابق عن العلامة الشيخ حبيب آل إبراهيم يقول:

«عندما انطلق بعد ذلك وعاش في العراق مسألة السنة والشيعة، وعاش في لبنان هذه المسألة كان يفكر بنفس الطريقة، وكان يقترب من الأسلوب أكثر، لأن القصة أن الله إذا قال لرسوله: ﴿ يَا أهل الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾، فقد قال رسوله(ص) مستوحيًا من الله: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى». تلك هي المسألة، ولهذا كان كتابه صورة لفكره: *الحقائق في الجوامع والفوارق*.

أيها المسلمون: لا يقل أحدكم للآخر أنا شيء وأنت شيء آخر، كما نجد البعض يدخل في التفاصيل، يبحث عن خلاف في تفاصيل صفة الله هنا، عن خلاف في تفاصيل صفة النبوة هناك، وعن خلاف في تفاصيل اليوم الآخر، وعن خلاف في تفاصيل جوانب القرآن، ليقف ويخطب: ربنا غير ربهم ونبينا غير نبيهم وقرآننا غير قرآنهم وآخرتنا غير آخرتهم، وأن يحدق في التفاصيل ليحول التفاصيل إلى شيء يعني أنك لا تلتقي بالآخرين. كان الشيخ يركز على الحقائق في الجوامع، هذه الجوامع التي يجتمع عليها المسلمون في عقائدهم في الخطوط العامة، وفي شريعتهم في الخطوط العامة، وفي قرآنهم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وفي اليوم الآخر وفي كل العقائد والمفاهيم.

وتبقى التفاصيل، ونحن لا نريد أن نهوّن من شأن التفاصيل ومن حيوية التفاصيل، ولكن مسألة الاختلاف بالتفاصيل مع الاتفاق بالمبدأ. يعني أننا نؤمن بالله، ونؤمن بكتابه، ونؤمن برسول الله وبسنته، عند ذلك نفهم جيدًا قوله تعالى: ﴿ فإن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إلى اللّهِ وَالرَّسُولِ﴾، لأننا نعرف أن الله إلهنا وكتابه هو الحقيقة، وأن الرسول نبينا، وأن سنته هي الحقيقة، ولذلك علينا إذا اختلفنا في بعض مفردات الحقيقة وبعض تفاصيل الحقيقة أن نقرأ

القرآن جيدًا قراءة مشتركة، وأن نقرأ السنة جيدًا قراءة مشتركة، لا أن تجلس وحدك فتقرأ على طريقتك، لتخضع القرآن لذهنك، أو يقرأ ذاك على طريقته ليخضع القرآن لذهنه، أن نشترك في القراءة ونشترك في فهم قواعد القراءة وفي فهم أساليب القراءة. إن الفوارق لا تلغي الجوامع بل لا بد لنا أن نستعين بالجوامع من أجل أن نردم الهوة بين الفوارق، ويبقى العقل هو الذي يتحرك، وتبقى المسؤولية هي التي تتحرك».

موقفه من التكفير

الحالة التي تفرز قضية التكفير، ينظر السيد فضل الله إليها برؤية ثقافية نفسية ويقول:

«لعل من أهم ما يواجه مشروع الوحدة الإسلامية هو ذهنية المسلمين الثقافية نفسها. والتي تركّز على الشخصية المذهبية في انتماءاتها. قبل التركيز – إن لم نقل دونه – على الشخصية الإسلامية العامة، التي من المفترض أن تشكل إطارًا عامًا للوحدة. في مقابل البيئة التي تحتضن الانتماءات المذهبية التي تضجّ بكل المفردات المليئة بالحساسيات والتعقيدات المختلفة والتي نمت في الزوايا المغلقة للتاريخ الغارق في عصبياته، ما يجعل المسلم ـ هنا وهناك ـ ينطلق في علاقته بالمسلم الآخر، ونظرته إليه، من كل هذه الأجواء السلبية التي تفرضها التربية العامة والخاصة. وهذا ما يساهم في إبعاد المسلمين عن الانفتاح على الإسلام في الأفق الواسع والساحة الممتدة. سواء في أفكاره وأهدافه أو في قيمه الأخلاقية وأساليبه الحوارية، وحركته العامة. وبذلك يفتقد المسلمون القاعدة الأساس في حركة الوحدة الإسلامية. وهي الارتفاع عن عناصر الخلاف. والنظر إلى مواطن اللقاء.

وقد يتحوّل هذا المسار ـ بفعل الحالة الشعورية الحادة. والاستذكار التاريخي الدائم للمشاكل المتنوعة، والممارسة اليومية للانفعالات القاسية ـ إلى تراكمات عقلية ونفسية وتعقيدات عملية. تؤدي إلى أن يتحول المذهب إلى دين مميز بالمستوى الذي قد يعيش فيه المنتمي إليه ثقل الشعور العدواني ضد المذهب الآخر. بحيث يجد في وعيه الذهني والشعوري العذر في اللقاء بأتباع الأديان الأخرى في مواقع اللقاء، بمالا يجد العذر فيه للقاء بأتباع المذاهب الأخرى في دائرة الإسلام. تمامًا كما هو شأن اليهود الذين كانوا يعتبرون المشركين ﴿ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ سَبِيلاً ﴾.

ثم إننا نجد ـ بفعل عوامل وتعقيدات كثيرة ـ أن هذا المنهج في الاستغراق بالخصوصية. قد أفرز منهجًا تكفيريًا لكل من يختلف معك في المذهب، حتى وصل الأمر إلى تكفير قائم على أساس الاختلاف في فهم هذا الحديث المروي أو ذاك، على الرغم من أن دلالاته قد تنفتح على أكثر من احتمال.

ولا نستطيع أن نغفل هنا الدور الأساسي الذي تقوم به الدول الكبرى المحتلة والمستكبرة في اللعب على كل عناصر الفرقة والاختلاف، ومحاولة تغذيتها، سواء بشكل مباشر أو غير مباشر، من خلال إفساح المجال لكل الفئات التكفيرية للعمل بحرية.

هذا الأمر يفرض على المسلمين المخلصين لمشروع الوحدة الإسلامية، أن يقفوا موقفًا حازمًا وواضحًا تجاه تلك الفئات، التي نرى أنها ـ في تطور حركتها – سوف تنطلق إلى الساحات التي تنتمي إليها مذهبيًا، ولا تقتصر على المذهب المخالف، لأن التكفير إذا أصبح منهجية في التفكير والحركة. فإن الظروف ـ في تبدلها ـ قد تنفتح به على مجال تكفيري آخر. ولعل هذا الأمر يساعد على إعادة أواصر الثقة بين القيادات الإسلامية المتنوعة، من خلال إحساسها بالهم المشترك، والأخطار التي تهدّد الجميع: الداخلية والخارجية».

فهمه الواعي للتحديات

كانت رؤية السيد فضل الله لأحداث لبنان والعالم الإسلامي تنطلق من فهم عميق للملابسات الداخلية والخارجية في خلق الأحداث، ويحذّر من الوقوع في فتن يخطط لها المستكبرون. يقول:

«نطل في هذه الأيام على مرحلة جديدة من مراحل الاستهداف الاستكباري للمنطقة العربية والإسلامية حيث يُراد التركيز على لبنان كواجهة جديدة من واجهات هذه المرحلة، فلبنان الذي كان نموذجًا في التصدي للاحتلال الإسرائيلي والذي استطاع طرد هذا الاحتلال من البوابة الأمنية والعسكرية المباشرة يراد له أن يدخل مرة أخرى في العصر الأمريكي

إن معالم هذه المرحلة وتحت عنوان نشر الديمقراطية في المنطقة كما يتحدث بذلك الرئيس الأمريكي بوش.الصعبة والمعقدة بدأت تتوضح أكثر في الإمعان الأمريكي بالتدخل في تفاصيل الحياة السياسية والاجتماعية اللبنانية، وفي ترتيب أمريكا لعلاقاتها مع أوروبا على أساس أن

يكون لبنان محطة من محطات هذا الترتيب بما يـؤمن للمـشروع الغـربي الاسـتكباري فرصًـا جديدة للامتداد بعدما اصطدم بأكثر من مأزق في فلسطين وفي العراق.

ولذلك فإنما ينبغي علينـا في الـساحة الإسـلامية أن نعـي بـأن المـشروع الاسـتكباري لا يستهدف جهة بعينها ولا حتى دولة لوحدها، ولا يريد أن يُفاضـل بـين الجهـات الـسياسية والطائفية على أساس قناعته بالإجحاف الذي يلحق بهذه الجهة أو تلـك الطائفـة، بـل يريـد لهذه الجهة أو تلك ولهذا العنوان أو ذاك أن يكون أداته للـدخول إلى سـاحاتنا الداخليـة مـن نوافذها السياسية بعدما تم إخراجـه منـها بجهـد المجاهـدين وعـرق العـاملين وسـعي الـدعاة والمؤمنين الواعين.

ونحن في الوقت الذي نريد فيه للوحدة الإسلامية أن تكـون سـلاحنا الأمـضى لا علـى مستوى الشعار فحسب، بل على مستوى الممارسـة والأداء، نريـد للعـاملين في سـاحة هـذه الوحدة أن يعملوا للسهر على حمايتها ورعايتها في مقابل خطط المـستكبرين وعبـث العـابثين وجهل الجهلة والتكفيريين.

إن ذلك يستدعي من العلماء أن يعملوا في نطاق خطاب إسلامي وحدوي تصالحي يعمل على مراعاة مصلحة الأمة العامة ولا يتوقف عند التعقيدات المذهبية والسياسية الخاصـة. كمـا يستدعي منهم العمل في نطاق ما تفرضه مصلحة الأمة لا في نطـاق المـصالح الذاتيـة أو ردات الفعل التي تنشأ بفعل الأحداث والأوضاع التي تنطلق هنا وهنـاك، ذلـك مـساهمة في تعميـق دعائم الوحدة الوطنية وتثبيت دعائم السلم الأهلي على جميع المستويات.

إن المرحلة خطيرة وصعبة ودقيقة، لذلك فمـن المفتـرض بمـن يـشعر بثقـل المـسؤولية وبالأمانة التي حمّلنا إياها الرسول الأكرم (ص) بأن نهتم بأمور المسلمين وأن نتـداعى للـسهر على قضاياهم وأوضاعهم، أن لا ننكفئ من الساحة وأن لا نكون صدىً لحركة الشارع بل أن ننطلق جميعًا لنجعل حركة الشارع منسجمة مع التطلعات العامة للأمة.

إننا أمام تعقيدات المرحلة من جهة وخطورة ما تتحرك به الغرائز من جهة ثانيـة نؤكـد علـى أهمية أن ينطلق العلماء داخل الساحة الإسلامية ليوجهوا الناس نحو النقاط المشتركة التي تمثل أهم عنصر من عناصر التماسك، وأن تنطلق الأخوة الإسلامية والمحبة الإيمانية لتواجـه الحقـد والعداوة والفرقة. وإن يتحرك العقل في مواجهة كل العصبيات والانفعاليات والغرائزيات...»